دراسات

جزر غرب البحر الأبيض المتوسط وشبكات الخرائط البحرية وأثرها على التجارة البحرية الساحلية وتجارة القوافل الإفريقية في العصور الوسطى

الدكتور
محمد صالح حامد سيد أحمد

Received :24 / 7 / 2025
Revised: 30 / 7 / 2025
Accepted : 31 / 7 / 2025
Published: 1 / 8 / 2025

د. محمد صالح حامد سيد أحمد
جامعة الملك عبد العزيز– جدة
المملكة العربية السعودية
drmss@sayedahmed.com

جزر غرب البحر الأبيض المتوسط وشبكات الخرائط البحرية وأثرها على التجارة البحرية الساحلية وتجارة القوافل الإفريقية في العصور الوسطى

مقدمة

شـــكلت ورقة أنغريد هوســـاي ميتشـــينزي و إيمانويل فاجنو المهمة والمعنونة (بالخرائط التجارية وحركة التجار في مايوركا في القرن الخامس عشـــر الميلادي) محور ورقتي المقدمة في هذا المؤتمر، لأهميتها واعتمادها مصـــدرا علميا لموضـــوع جزر البحر الأبيض المتوسط ، فعمدت إلي ترجمتها كاملة من اللغة الفرنسية إلي اللغة العربية لتكون في يد الباحثين، وكان التركيز على جزيرة مايوركا في شـــرق الأندلس المجاورة شـــبه جزيرة إيبريا غرب أوروبا، ودور الجاليات الأوروبية من مســـاكن مايوركا وجزر البحر الأبيض المتوسـط و جيرانهم من العرب والمسـلمين حيث ظهر تعاون اليهود والمسيحيين مع المسلمين في تسامح واضح والذي شكل التقدم البحري الإقتصـــادي لجزيرة مايوركا وتفوقها على غيرها من الجزر الإســـبانية، باعتبارها المحرك القوي للتجارة الأفريقية الأوروبية، كما ســـاعدت ظروف الفترة التي انطلقت فيها الجهود الملاحية والإقتصادية في مايوركا على توفر التحويل المالي، والاقتصادي إضـــافة إلى الخبرة الإدارية والمالية الجادة في الجزيرة في فترة حكم الموحدين ثم الحفصـيين، وتركيزهم على الناحية الإقتصـادية التي شـكلت المورد الأسـاسـي لجزيرة مايوركا حيث لم تكن لها موارد أخرى تعتمد عليها.

واستوجب الأمر التعرض لأحوال الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط واشتراكها في النشاط الملاحي والإقتصادي في فترة العصور الوسطى والحديثة، وبالمقارنة بين الإستيطان البشري لشمال إفريقيا في فترة حكم الدولة الحفصية في تونس ووضع النشاط الإقتصادي والزراعي والبحري في منطقة شمال أفريقيا وتونس على وجه الخصوص و بين البيئة البحرية لجزيره مايوركا وخواصها الجغرافية ونشاطها البشري في التجارة وما إلى ذلك من عوامل اقتصادية ساعدت الجزيره على الحياة طيلة ازدهارها الاقتصادي.

تعرضت في المقدمة تمهيدا للموضوع على أهمية دور الخرائط البرتغالية في الملاحة ودورها في اكتشاف طريق التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى الشرق. كما أشرق إلى أهمية تلك الشبكات البحرية البرتغالية التي عملت بين نواحي البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا سواءا في العصور الوسطى أو العصر الحديث ونحو حركة الإستعمار البرتغالي لشمال أفريقيا وغربها حتى البرازيل ، بالإضافة إلى الشبكات الإجتماعية والإقتصادية التي عملت في مايوركا وشمال أفريقيا في تلك الفترة منذ القرن الثاني عشر ظهر نشاط التصدير والاستيراد في شمال أفريقية للمواد الخام ونصف المصنعة اللازمة للصناعات الخرفية كالحديد والنحاس والقصدير وأخشاب البناء والصناعة، وكان التصدير من شمال أفريقيا أقوى بدرجة كبيرة كما أشارت دكتورة سفيتلان باتسييتا، كتابها (العمران البشري في مقدمة ابن خلدون في القرن الثالث عشر الميلادي).

الدراسة

يجمع فن الملاحة بين الطبيعة والقوارب والرجال حول خطوط التجارة التي أوجدت حضارة البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة ، والتي شكلتها شعوب البحر التي أبحرت عليها وجلبتها الحرب والنهب، ولكن أيضا المنتجات والنماذج الثقافية والمجتمعية الجديدة من أبطال المغامرين والقراصنة، إلى التجار المتحمسين

للأمن والربح فإن تاريخ العصور القديمة والوسطى هو تاريخ التعلم عن فضاء مثير ومسيطر وهو البحر، من أجل تحقيق أقصى إستفادة من نقاط الضعف فيه.

منذ القرن السادس قبل الميلاد وظهور أول سفن نقل كبيرة حتى العصور الوسطى حيث كان التقدم المحدود للتكنولوجيا والتجانس العميق لأدوات وممارسات التبادل بين ميناء المنشأ إلى ميناء الوصول. وتتحد الظروف الطبيعية للملاحة من خلال ثلاثة عناصر:

أ- الرياح. ب- التيارات. ج- طبيعة الضلوع

كذلك يمكن أن نضيف الرواية، بالمعنى الواسع الذي يعتمد على عوامل الأرصاد الجوية، ولكن أيضا في علم الأوروجرافيك : نظرا لتأثير إنحناء الأرض في يوم صاف، نرى الجبال مثل رؤية السواحل.(١)

وإذا نظرنا إلى غرب البحر الأبيض المتوسط وشماله كان مجالا للتعاون الأوروبي والذي أدى فيه العمل المشترك للقوات البحرية للصليبيين والقوات البرية للملك أفونسو هنريكي إلي غزو لشبونة، وكانت موانئ نهر تاجوس، وسادو البرتغالية إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين امتدت السيطرة البرتغالية إلى ألينتيخو اليوم والمسيحيين كذلك المينائيين الجنوبيين للبرتغال كانا مفتوحين لزيارات الأساطيل التي كانت متجهة إلى سوريا لغزو القبر المقدس، ونجحت البرتغال في أيام ألفونسو هنريك ومآثر دون فواس روبينيو الذي تغلب على المسلمين في كيب إسبيشل وركض على الساحل الجنوبي إلى الغارف ووصل إلى سبتة في العهد الثاني حيث تم الإصرار على إنشاء البحرية العسكرية، حينما أرسل دون سان تشو أربعين قاربا برتغاليا لغزو سيلفش، محفوطة مع مع خمسين من الصليبيين الإنجليز والفلمنكيين والألمان والدنمارك (سنة ١١٨٠م) حيث كان الجنوبيون في ذلك الوقت سادة فن الإبحار (الملاحة) تلك الملاحة التي نشأت من بحر الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط والعكس بالعكس تلك الملاحة

التي بدأوها في العصـــور القديمة كلا من الفينيقيين والرومان، حتى جاءت إعادة التأسيس مع حركة الحروب الصليبية التي مرت بأساطيلها التي تجاوزت أسبانيا في طريقها إلى سوريا أمام لشبونة دون أن تمكنو من إنقاد أنفسهم هناك حيث كانت لشبونة لا تزال تحت الحكم الإسلامي.(٢)

قدم الأجانب إلى لشبونة وتم استنكار الطابع العالمي لتاريخ البرتغال، حيث أصبحت لشبونة مدينة عظيمة بها العديد من السكان والأشخاص العباقرة، كما كانت منازل وأحياء وأراضي مخصصة للعديد من الأمم مثل أهل جنوة لومبارد، أراغون، ومغاربة مسلمين، ميلانو، كورسيكان، بيسكايات، تتمتع بامتيازات، وإعفاءات لم يكن الملوك يطمعون فيها، حيث كانو متحمسين للمجيء وإرسال بضائع كبيرة وسميكة من مملكة البرتغال، كانت لشبونة ميناءا حرا، كما أن النظام الذي تعيش في ظله العاصمة عزلها بحواجز عن بقية المملكة، فقط كان الأجانب داخلها يتمتعون باستيراد وبيع المواد الغذائية المستوردة والمصدرة كما في الخارج حيث لا يمكن أن يكون هناك سوى مواد غذائية، ذات طعم مميز كما هو الحال في إيطاليا، حيث حد التجار والطبقات العاملة من قوة العظماء والمحاربين كذلك أصبحت التجارة بمثابة دفاع للنبلاء والأباطرة ومع ذلك لم يكن الملك مدرجا في عداد هؤلاء لكونه مالكا للسفينة، وتاجرا شخصيا، ولكنهم لم يشتروا ولا يبيعوا الأنواع التي يتاجر بها الآخرون حتى لا ينافسهم تاجر حيث كان التاجر على ما يبدو كان لديه المزيد في الإعتبار للتحريض وتعزيز التنمية، مثل حركة المرور التجارية مما ساعد في فتح الطرق التجارية، واستكشاف أنواع جديدة، حيث كان هناك دون أدنى شك لدى الحكومات فكرة واضحة عن الحماية لأن الملوك كان لديهم مثل هذه الطريقة مع الناس وشعروا بها لخدمتهم، والربح الذي يفرض على الأموال الضمان لمن أراد أن يحمل نقودا، ويتقاضى عشورا مرتين في السنة والعائد آتي إليهم، وبعدما رأى ما يكسبه كل منهم تركوا العشور على الفور. (٣)

جمع فن الملاحة بين الطبيعة والقوارب والرجال حول خطوط التجارة التي أوجدت حضارة البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة، التي شكلتها شعوب البحر التي أبحرت عليها، وجلبتها الحروب والنهب، ولكن أيضا المنتوجات والنماذج الثقافية والمحتمعية الجديدة، من أبطال المغامرين الأسطوريين مثل أوليلي أو خايسون أو إينيس إلى التجار المتحمسين للأمن والربح فإن تاريخ العصور القديمة هو تاريخ التعلم عن فضاء مثير للإشمئزاز ومسيطر، وهو البحر، من أجل تحقيق أقصى إستفادة من نقاط الضعف.

سوف نركز في هذا الموضوع على طرق الملاحة. أي الطرق المخططة للرحلة والتي اتخذتها بالفعل سفينة للإنتقال من ميناء المنشأ إلى ميناء الوصول، وترتبط الطرق في الواقع بالقيود الطبيعية كما قال (مورهون ٢٠٠١): بعض الطرق غير سالكة بشكل مؤقت أو مزمن في اتجاه معين، وبالتالي يؤدي السبب إلى اختيار طرق أخرى، قد تملي الأسباب السياسية أو الاقتصادية أيضا طريقا على أخر، حيث يمكن للأسباب المذكورة التحويل للإستفادة من السوق بالذهاب إلى وجهة نهائية وممارسة العديد من التوقعات التجارية على طريق مخطط مسبق قد نضطر إلى تجنب المناطق غير الآمنة أو المرهقة أو المحظورة من قبل دولة أجنبية ذات سيادة تسيطر على المناطق البحرية.(٤)

وتظل الحقيقة أن الجغرافية القديمة حتى عندما بدأت في استخدام أقوى الأدوات الرياضية المتاحة للجغرافيين، كانت تعتمد إلى حد كبير على البيانات التجريبية، ولم تكن إعادة بناء شكل وأبعاد الأرض المأهولة مبنية بشكل أساسي على الحسابات الفلكية، إذا كانت بعض حسابات خطوط العرض قد تدخلت من حين تدخر في النقاش، فلابد من إدراك أنه حتى بطليموس كانت البيانات المعينة المستمرة من التجربة والمصادق عليها من قبل الضمير الجماعي والتقاليد هي التي سمحت ببناء الخريطة، حتى لو كانت الصورة التي تم إنتاجها في نهاية البحث محردة ومصطنعة للغاية، فإن جميع العناصر

المطلوبة لتكوينها لها جذورها في الفضاء، الموجود، وهي ذات طبيعة علمية في الأساس.

تم إستخلاص هذه البيانات أولا من الملاحة، ولم يبدأ فعليا إلا مع فتوحات الأسكندر ومع القياسات ولدت جغرافيا أراتوستينيس، التي استمر عددها ونوعيتها في النمو في ظل الإمبراطورية الرومانية، تلك القياسات التي جمعها الجغرافيون لبناء خريطة العالم تحتوي على إمكانية غير متوقعة فقد أعطوا حياة جديدة مع ظهور ما يسمى "الجغرافيا الرياضية" وبها يكون الخطأ هو التفكير على أساس قوائم الإحداثيات لبطليموس، حيث كانت هناك أربع مدن فقط موضوع حسابات خطوط العرض : س (أسوان) الإسكندرية رودس، ومرسيليا، بينما ظل حساب خطوط الطول غير متاح لرجال العصور القديمة.

خير أن الفكرة التي سادت لفترة طويلة والتي تجد مؤيدين لها اليوم هي الأسبقية المطلقة للملاحة الساحلية في العلاقات البحرية، لها أصول معقدة، ولها جذورها في كل من المفهوم البدائي لكل ممارسات الملاحة والتجارة في البحر الأبيض المتوسط القديم.(٥)

تم توثيق الملاحة الساحلية التجارية قبل كل شيء من خلال مصادر العصور الوسطى والتي طلبها العلماء الأنجلوسكسونيون على نطاق واسع خلال العشرين عاما الماضية حيث كان من المناسب على الأقل الإهتمام بالخصائص الرئيسية للملاحة في العصور الوسطى دون مناقشة إلى القصور القديمة (وداخلها إلى جميع الفترات دون تميز) والتساءل عن السمات المحددة للسياق الذي شكلها، حيث كانت المجموعات الأكثر طلبا هي تلك الخاصة بجنيزة القاهرة، والتي تتعلق بأنشطة جزء من أسطول دلتا النيل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي وتلك التي تجعل من الممكن إعادة بناء الخطوط الرئيسية لتاريخ الأساطيل التجارية في مصر، البندقية وجنوة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر.

حيث تهتم أرشيفات جنيزة (بودوفيتش ١٩٧٨) بشكل أساسي بالتبادلات مع شمال إفريقيا، وأحيانا مع إسبانيا ومع مرسيليا، كما هو الحال في العصور القديمة، عادة ما يكتشفون عن تجار متميزين عن مالكي السفن، الذين يستأجرون مساحة على متنها لبضائعهم، وكانت القاعدة هي قارب واحد لكل مالك، لكن أقل إطلاعا على حجم السفن فيجد المرء هناك صورة تجارة عالية التخصص، مسجلة في مساحة محددة نسبيا، ساحلية حصرية، وبطيئة جدا، لا يرجع هذا البطء إلى قيود الفنية، بل يرجع إلى الهيكل الإقتصادي للتجارة التي ترتبط بها، مما يؤدي إلى العديد من التوقفات، وعادة ما تكون طويلة جدا بسبب تعقيد الأنشطة التجارية، أن الملاحة الساحلية التي وصفتها وثائق جنيزة هي نتيجة لسياق إقتصادي وممارسات تبادل محددة للغاية، لذا فالوقت عنصرا أساسي في الحساب الإقتصادي، حيث كان المبدأ هو شراء السلع بسعر منخفض لبيعها بسعر مرتفع، حيث تفتقر إليها، إنها تجارة تلعب على تقلبات الأسعار، وحيث يكون من الضروري الوصول قبل الآخرين، في دروة الطلب، وبالتالي كيف تكون[٦] سريعا، حيث تتضاعف محطات التوقف بحثا عن ظروف السوق المواتية والبحث عن معلومات حول حالة الأسواق المختلفة، وعن وجهة السفن الأخرى، ثم لا تتردد في تحويل أنفسنا (بودوفيتش ١٩٧٨، ص (٥٢٥-٥٢٧) للإستفادة من الوضع الأمثل.

تمثل التجارة في القرنين الثالث عشر والخامس عشر، والمعروفة بشكل رئيسي من خلال وثائق جنوة وفينيسيا، قواسم مشتركة أكثر وضوحا مع العالم الروماني؛ أولا من خلال المسافات، فإن أفضل طريقتين موثقين هما طريق الشام وطريق المحيط الأطلسي؛ ثم من حيث الحجم والرهانات المالية للبورصات؛ أخيرا من خلال زيادة حمولة السفن في حين أنه لا يستبعد الملاحة الساحلية ذات المهنة الإقليمية، إلا أنه يمكن تعريفها على أنها (الملاحة الساحلية الرئيسية)، في التعريف المقدم من إ. كيتري، بقدر ما عبر مسافات كبيرة قبل أن يقوم بعدد كبير نسبيا من المحطات التجارية، والتي استمر عددها في الزيادة في القرن الخامس عشر الميلادي، مع تطور التجارة المتخصصة.[٧]

الخرائط البرتغالية

بعد الرحلات الرائدة لبارتولوميو دياز، وفاسكو دا جاما تم رسم الساحل الشرقي لإفريقيا تدريجيا وفقا لنموذج، الخرائط البحرية في العصور الوسطى ثم نشهد بعد ذلك إنتاج خرائط بحرية (أول برتغالي أو إسباني، أو إيطالي) وأحيانا كبيرة جدا، استنادا إلى استطلاعات أجراها الملاحون، حيث نلاحظ في هذه الكرة الأرضية ترددا في الشكل الفعلي لأفريقيا، وأحيانا نجدها مستطيلة، تذكرنا ببطليموس ، أو يشير إلى الجنوب بشكل أو بآخر، منذ القرن الرابع عشر الميلادي ثم اعتبار الخرائط البحرية موثوقة بشكل خاص لتمثيل الشواطئ والتي تعد على وجه التحديد المساحات الأولى التي يستكشفها الملاحون، قبل فترة طويلة من المناطق الداخلية للأرض، لكن تقنية رسم الخرائط البحرية، التي تم تطويرها لمنطقة البحر الأبيض المتوسط باستخدام البوصلة، والتي امتدت إلى الساحات المحيطية التاسعة، حيث طرحت مشكلة موثوقية القياسات من خطوط العرض وخاصة من خطوط الطول، المسجلة على الأرض، لم تستطيع بيانات التجربة الإستغناء عن الإطار النظري.(٨)

غير أن هنري مارتيل يقدم مثالا على إستقبال بطليموس من توسكانا وتكليفه مع الإكتشافات البرتغالية الحديثة رسام الخرائط الألماني هذا الذي يرجح أنه من مواليد نورمبرغ، عمل في فلورينسا في خدمة عائلة من النبلاء الفلورنسيين (مارتيلي، من هنا لقبه) والذي كان قريبا من رسامي خرائط ألمانيين آخرين مشهورين، نيكولاس جرمانوس الذي صمم الخرائط المطبوعة للجغرافيا أولى عام ١٤٨٢م وليبنهارت هول، طابعة هذه الطبقة الأولى، أنتج العديد من أعمال رسم الخرائط، غالبا ما تكون فاخرة، كما اعتنى أيضا ب ٥٥ كرة أرضية من نسخة جميلة جدا من الجغرافيا، وضع مشروعه في الجمع بين المعرفة في وقته لإنتاج عمل رسم الخرائط إستناد إلى السلطات القديمة، ولكن تم تحديثه أيضا من خلال الإكتشافات الحديثة.

يحتوي هذا العمل المغطى بالزخارف على الكوزموغرافيا لكلاوديوس بطليموس، مع خرائط المناطق في عصرنا، وجميع الموانئ والأماكن البحرية المعروفة بالفعل والتي اكتشفها ماك البرتغال مؤخرا.(٩)

حيث لا يحتوي هذا المشروع على أي شيء أصلي بشكل خاص، ويتخطى كل رسم الخرائط الإنساني في نهاية العصور الوسطى بدلا من التجميع كما هو الحال في خرائط العالم لفراماورو حيث اختار مارتيلوس إفريقيا القابلة للإبحار حول العالم ولكنها تتخطى بشكل غريب إطار خريطة العالم باعتبارها إنتهاكا مرغوبا ومفترضا لإطار بطلمي شديد الصلابة وعالم آخذ في الاتساع، ومع ذلك في عام ١٤٨٩م وهو تاريخ خريطة العالم هذه، لم تعيد الملاحة بعد أي أسماء جغرافية تقريبا على الساحل الشرقي لأفريقيا، ولا يضع مارتيلوس سوى بعض الأسماء المأخوذة من جغرافيا بطليموس بعد ذلك، إلا أن التعدي على الإطار ألهم فرانشيسكو روسيلى، ثم مارتن فالدسيمولر، الذي وضع صورا على واجهة مقدمة الكرة الأرضية عام ١٥٠٧م، بقلم جيوفاني فسبوتشي وكلوديوس بطليموس، مؤكدين على كيفية الجمع بين الطريقتين (رسم الخرائط البحرية ورسم الخرائط البطلمية) للوصول إلى صورة موثوقة للواقع الجغرافي.(١٠)

الشبكات البحرية البرتغالية

أما فيما يتعلق بالشبكات البحرية التي أنشأها البرتغاليون للملاحة حيث احتل البحر الأحمر مكانة مميزة في الخيال الأوربي، يعرف بالفعل من عالم البحر الأبيض المتوسط القديم بأنه الطريق المميز إلى الهند، وهو مدين بالكثير من وعينا برسم الخرائط، جلبته العديد من التقاليد إلى الواجهة وألهمت قدرا هائلا من تمثيلاتها، حيث كان أحد أهم التمثيلات هو علم الكونيات لبطليموس (القرن الثاني الميلادي) الذي أدى إلى متغيرات متعددة طوال فترة القرون الوسطى حتى عصر النهضة، وحين يقدم تعليق على سفر الرؤيا (حوالي ١٠٢٨-١٠٦٠م) ليبتوس دي ليبانا، وبوليكرونكون من رانولف هيغدن (القرن الرابع عشر) مثاليين على استكشاف مخططات العصور الوسطى أشكالا مختلفة

من القصور، كذلك من ناحية أخرى شدت كرونولوجيا ماجنا بولين من البندقية (١٢٦٩م) على وظيفة البحر الأحمر كطريق للتوابل، فإن أهميتها ترجع أيضا إلى قربها من الأماكن المقدسة المسيحية وشبه جزيرة سيناء، التي يحمل إسمها دلالات مكان الوحي الكتابي، وفي أعقاب الحروب الصليبية بعد إسقاط عكا (١٢٩١م) على يد القديس يوحنا، سارعت الممالك المسيحية للعثور على حليف لتحري القوة الإسلامية في بلاد الشام، كما أدى إلى نشر الكتابات السياسية التي تدعو إلى إستراتيجيات تدمير(١١)

تدمير الإسلام وإلى إحياء الأساطير المتعلقة بالمسيحية غير الساحلية لمساعدة العالم المسيحين في معركته يحكمها القس برسترجون الغامض حيث كان يعتقد أن هذه السيادة المسيحية تقع في مكان ما من الأراضي الأسيوية، وفي نفس الوقت ساهمت السفارات الحبشية بالإهمال للبرتغال وأوروبا الغربية.

الخرائط والشبكات الإجتماعية والإقتصادية

بدأ أفونسو دي ألبوكيرك خلال فترة الراحة الطويلة في رحلته التي استمرت شهرين، بدأ أفونسو دي ألبوكيرك في رسالته المؤرخة من ٣ ديسمبر ١٥١٢م الموجهة إلى الملك دوم مانويل بتسجيل رؤيته للتكوين المكان للبحر الأحمر، ويجب التذكير على مدى أهمية معلوماته في العصور اللاحق للبرتغاليين عن هذا البحر غير الساحلي في محاولة لتسهيل تصور مثل هذا الفضاء الفريد حيث قامت المصادر البرتغالية لاحقا بمقارنة البحر الأحمر بسحلية ضخمة تتوافق رقبتها مع منطقة باب المندب ورأسها إلى خليج عدن حتى رأس غواردافري كما أولى أفونسو دي ألبوكيرك إهتماما كبيرا بالبيئة الطبيعية أخذ قياسات الأعماق، ولاحظ الإنقطاعات الجغرافية للمناظر الطبيعية والتناوب المسجل بين الهضاب والأحواض وتكوينات الكتبان الرملية والسلاسل الجبلية كذلك كان مهتما بشكل خاص بالجغرافيا السياسية للبحر الأحمر والترابط من الديموغراتيا والبيئات الطبيعية المعادية، وكذلك اللامركزية في السلطات السياسية بالإضافة إلى اهتمامه بنقل معلومات عن مختلف القبائل وفئات السكان وقدم تقارير عن الشبكات التجارية، وكذلك

من الرابط الإجتماعي والإقتصادي والسياسي، كما قد عمل على معرفة من الذي حكم وأين، وما هي حدود الممالك، وفي دفع الجزية للحكام المختلفين [١٢] نجد كيف يتناغم كيف يتناغم دور حدود البحر الأبيض المتوسط كمنطقة نفوذ أوروبي وبعض الوجود البرتغالي مع دوم جواو الثاني، ومن خلال انصالاته مع تونس وإنشاء مركز تجاري في أوروبا (روي Roy فرناندیز دي ألمادا) بين عامي ١٤٨٢ و ١٤٨٧م، هذه المرة ساهم تطوير تصدير السكر الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط وذلك حينما باعه الملك لشراء الأسلحة، كما سيكفل دوم مانويل استمرار هذه السياسة، مع إنشاء مركز تداول شبير (١٤ مارس ١٤٩٩م)، وتجارة السكر مع العثمانيين، مصحوبة بالحماية الممنوحة لرودس، حيث رأى الملك القاعدة الإستراتيجية التي يفتقر لها في شرق البحر الأبيض المتوسط وهي "بوابة" حقيقية للوصول إلى البحر الأحمر في ظل سيطرة تجارة غرب المحيط الهندي.

نظرت أوروبا إلى البحر الأبيض المتوسط كحد جنوبي لأوروبا، والخط الفاصل بين المسيحية والإسلام خصوصا بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية عام ١٤٥٣م (١٤٤٤-١٤٤٦ / ١٤٥١-١٤٨١م) حيث كانت منطقة يسهل اختراقها وسهلة التبادلات والإتصالات والتداول.[١٣]

ولذلك تتمثل إهتمامات قاعدة بيانات أبيم APIM إلى جانب وصف المنافذ في. الملفات الفردية في السماح بتمثيل وفهم البنية المكانية للمناطق الساحلية، وإدراجها في شبكات التبادل المعقدة، أما في حالة المغرب العربي، الذي يمتد من المحيط الأطلسي إلى طرابلس، وبرقه يتجه أكثر نحو مصر والشرق، تزداد أهمية دراسة الموانئ مع زيادة دورها في التاريخ ليس فقط سياسيا وإقتصاديا ولكن ثقافيا ودينيا أيضا، حيث كانت المنطقة من القرن التاسع وخاصة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تعيش مع نزوح العديد من العواصم السياسية نحو الشمال والنتيجة هي إندماج شامل بشكل متزايد في الشبكات التجارية التي تمتد إلى العالم الإسلامي بأسره (نحو الأندلس وصقلية في

الشمال، ونحو مصر وخارجها نحو سوريا والعراق والمحيط الهندي إلى الشرق)، ومن الشرق الأوسط في القرن الحادي عشر إلى الشواطئ المسيحية للبحر الأبيض المتوسط علاوة على ذلك فإن[١٤] توسع اللاتين نحو الأسواق المغاربية هو الذي يعدل جذريا شبكات التبادل لموانئ الساحل الأفريقي مم خلال توسيع أفقها بعيدا جدا إلى الشمال إلى المناطق الإقتصادية في فلاندرز وإنجلترا، وصول الجهات الفاعلة القوية والديناميكية الجديرة التي تساهم بشكل كبير في تعديل التدفقات والتسلسل الهرمي للموانئ.

إن مفهوم الشبكات في قلب مشروع أبيم APIM، يجعل من الممكن تحرير الذات من فئات التحليل التي سادت لفترة طويلة، والتي اجبرتنا على التفكير من حيث الكتل، والتي غالبا ما يتم التفكير فيها في الجانب الديني أو السياسي وغير قادر على تفسير تكوينات أو تطورات هذه التبادلات، وبالمثل فإن المنهج فيما يتعلق بالمركز الأطراف التي تؤدي فيما بينها إلى إبراز مراكز الرخم الكبير للتجارة، ولا يجعل من الممكن فهم عالم متوسط يتسم بتعدد الأقطاب، وغالبا ما يؤدي إلى المبالغة في تقدير دور الدول والدور السياسي الصراعات، فضلا عن العواصم السياسية.

إن منهج الشبكة، على العكس من ذلك يجعل من الممكن تحليل هذا التقدير، لاسيما من خلال الإهتمام بالمقاييس.

الدولة الحفصية

كان الأندلسيون من شمال أفريقيا هم الهاربين من نير وإضطهاد الإسبان سكان إسبانيا، وقد استوطنو كلهم تقريبا في المدن الساحلية الكبرى مكونين بداية لمجموعات كبيرة (كذلك أن يذكر شيخ الطائفة الأندلسية في بداية عام ١٢٥٠م) وقد أنشأوا في جيش الأندلسيين تشكيلات عسكرية خاصة، لكن سرعان ما إمتزحوا هم وأحفادهم بالسكان المحليين بالمدن، ولقبت سلالاتهم (بالأندلسيين) وهم وفقا للتقاليد أكبر تحكم العادة من أي إنعزال سياسي أو إقتصادي، وقد احتفظ الأندلسيون أمرا طويلا بتفوقهم الثقافي

والمهني على سكان البلاد المحليين، ومن أجل ذلك سرعان ما أصبحوا على رأس النقابات المهنية والتحارية، لأن الأندلسيين هم ورقة الثقافة الإسبانية والمورسكية الأكثر تقدما في ذلك العصر، وقد اكتملت لهم أفضل القوى العلمية والأدبية في مجتمع شمالي أفريقيا.

ولم تكن الأرستقراطية الأندلسية مرتبطة بالقبائل، ولم تكن لها ملكيات عقارية كبيرة وراء حدود التلال، بل كانت رفاهيتها مرتبطة تماما بالوظائف الحكومية المتصلة بإيجارات الأراضي مرتبطة تماما بالوظائف الحكومية المتصلة بإيجارات الأراضي وبالتجارة عير البحار، ولهذا كان للأندلسيون نصراء للحكومة المركزية القوية، وكانوا مرفقين في التجارة الداخلية والخارجية كما كانوا أعداءا للحكومات الذاتية القائمة، باذلين جهدهم للوصول إلى السيطرة الكاملة على الشؤون الحكومية لشيوخ الموحدين.(١٥)

وكان المنحدرون من سلالتهم يستغلون أكثر المناصب العليا في البلاط والإدارة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وكان النضال بين الأندلسيين وشيوخ الموحدين على الدور القيادي في الجهاز الحكومي لدولة بني الأحمر يسير عبر التاريخ السياسي لأفريفية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي.

وبعد وفاة أبي زكريا (١٢٤٩م) واصل سياسته السلطان المنتصر (١٢٤٩-١٢٧٧م) في بداية المملكة التي رفع زعماء الموحدين فيها راية المتمرد لأول مرة في مواجهة، المتسلط الأندلسي، في عام (١٢٥٠م) وبسرعة وقوة ثاروا مؤيدين بالحرس المدن الخاص، والفرق المسيحية المأجورة، ومع ذلك لم يكن هذا المتمرد هو الأخير.(١٦)

ولعل ما أشارت إلين سغيتلانا باتسينا، أن الأرستقراطية الأندلسية لم تكن مرتبطة بالقبائل، ولم تكن لها ملكيات عقارية كبيرة وراء حدود التلال، بل كانت رفاهيتهم مرتبطة تماما بالوظائف الحكومية المتصلة بإيجارات الأراضي وبالتجارة عبر البحار، ولهذا كان الأندلسيون نصراء للحكومة المركزية القوية. ومانوا موفقين في التجارة الداخلية

والخارجية، باذلين جهدهم للوصول إلى السيطرة الكاملة على الشؤون الحكومية لشيوخ الموحدين، وكان المنحدرون من سلالتهم يستغلون أكثر المناصب العليا في البلاط والإدارة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وكان النضال بين الأندلسيين وشيوخ الموحدين على الدور القيادي في الجهاز الحكومي لدولة بين الأحمر يسير عبر التاريخ السياسي لأفريفية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي وعند بداية القرن الخامس عشر الميلادي شغلت إفريقيا في الشمال الأفريقي موقعا مسيطرا كانت قد فقدته بعد وفاة المستنصر وأحرزت التقاليد السياسية للحكام الحفصيين الأوائل أخيرا قرة حيوية، ولكن إزدهار أفريقية لم يستمر طويلا، ففي النصف الثاني من القرن الخامس عشر، دخلت بلدان شمال أفريقيا مع بلدان البحر الأبيض المتوسط الأخرى مرحلة الأزمة القاسية التي جاء بها القمع وكساد الحياة الإقتصادية والسياسية والثقافية لسنوات طويلة.

ولقد زحفت هذه الأزمة الناشئة أساسا في البلدان الأوربية من حوض البحر الأبيض المتوسط، بالإنتاج الرأسمالي القديم، والتجارة البحرية والبرية الضخمة مع الشرق "فكل التجارة مع الشرق توقفت بسبب الغزوات المنقولية والتركية والكشوف الجغرافي التجارية، منذ ١٤٩٢م و أسرعت بها، ثم عجلت بنهايتها"، وبحكم التخلف الإقتصادية في شمال أفريقيا، ظهرت الأزمة هناك من قبل بشكل أقسى بما حدث في البلاد الأوربية، ولقد ضاعف من حدة الأزمة وزادها تحرجا، تغلب المسيحيين (الأسبان والبرتغاليين) والأتراك بصورة أساسية واستيلاؤهم على ساحل الشمال الإفريقي.

وعلى هذه الصورة، وبفضل تطور العلاقات السلعية في نظام السوق الدولية للبحر الأبيض المتوسط، وتزايد الأهمية الإقتصادية والسياسية للمدن الساحلية في شمال أفريقيا في القرن الرابع عشر الميلادي تكونت فئة إجتماعية هي طائفة النبلاء تلك الطبقة وثيقة الصلة بالتجارة الدولية والإقتصاد السلعي، [١٧] ويضيف شارل أرندرية جوليان حديثه عن الحفصيون قائلا : (ومهما واجهت الدولة الحفصية من ظروف الدهر فإنها استطاعت أن تصمد في. الشطر الشرقي من المغرب طيلة ثلاثة قرون ونصف وأن تترك في البلاد

أثرا عميقا، الأمر الذي يبرر عمل د. برنشفيك الذي خص أكثر من نصف تأليفه لدراسة البلاد ومؤسساتها كانت الحالة الديموغرافية تشهد توافدا على أفريقية أكثر من غيرها من أجزاء المغرب الأخرى، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر عدد كبير من العرب الرحل، فكيف تمكن هؤلاء القادمون الجدد الذين نجهل عددهم من الاستيطان ببلاد لاريب أنها كانت عامرة بالبربر الذين كأنهم استقروا بصفة عامة ومن دون أن ذلك قاعدة مطرده في الأرض المبسطة المتلائمة مع عاداتهم الرعوية، بينما نزح البربر نحو السواحل أو اتجهوا إلى المناطق الجبلية، على أنه من العسير أن نميز إبتداءا من العهد الحفصي بين الجهات البربرية، والجهات العربية لأن الحدود اللغوية لم تعد متطابقة مع الحدود العرقية، نتيجة لتغلغل اللغة العربية تغلغلا عميقا حتى في المناطق التي يسكنها البربر. وكان يعيش إلى جانب المسلمين نصارى ويهود، ولئن ضايق الموحدون المتشردون، فقد تمكنوا من العيش والتحق بهم عدد من يهود إسبانيا على أثر منالهم من اضطهاد سنة ١٢٩١م نتيجة قرار الطرد الذي سلط عليهم بعد استيلاء النصارى على غرناطة ولم يقم يهود أفريقية بالدور السياسي الذي كان من نصيب إخواتهم في الدين في المغرب الأقصى في عهد المرينيين، ولكنهم[١٨] ساهموا مساهمة فعالة في الحركة الإقتصادية بالبلاد وشملهم ملوك بني حفص بالرعاية والعناية، فهل كانوا يعيشون في حارات خاصة كما كان الشأن في المغرب الأقصى إبتداءا من القرن الخامس عشر الميلادي حيث أن ما لدينا من الوثائق لا يسمح بالتيقن من ذلك كما قال جوليان.

أما النصارى فإنهم كانوا جميعا من أصل أوربي إذ أن آخر ما تبقى من آثار المسيحية الإفريقية قد إندثر منذ القرن الثاني عشر تحت تأثير الحركة الموحدية، وكان منهم التجار الذين كانوا يعيشون غالبا في الموانئ مجتمعين "بحسب قومياتهم" في فندق حيث يسكنون ويتاجرون تحت إشراف قنصل معتمد لدى العاهل الحفصي، ولئن كانوا عرضة للتقلبات السياسية فإن وضعهم كان في الغالب مرضيا، وكان إلى ذلك يوجد بالبلاط للحفصي، حرس نصراني مؤلف من بضع مئات من الرجال كادو جميعا في

الأوقات أن يكونوا من القطلانيين (Ctalans) يقومون بحراسة شخص الأمير ويعيشون في حي خاص بهم وبقوا في الجملة على نصرانيتهم.

وكان يوجد إلى جانب هؤلاء من تنكر لدينه وأكثرهم كانوا من العبيد رجالا ونساءا إختطفهم القراصنة، وأخيرا كان يوجد عدد من رجال الدين في خدمة كنائس المجموعات النصرانية، منهم المكلف بدفع دية الأسرى، ومنهم المبشر سواءا إنتسب إلى نحلة الدومينيكان، أو الفرنسيسكان، ويسعون جميعا إلى شراء الأنفس في سبيل الله،(١٩) وستبقى الحفصيون بأفريقية في حكمهم لهذه المحموعة من السكان المختلفة الأجناس النظام الذي وضعه الموحدون بل أن المهدي ابن تومرت ظل إلى أوائل القرن الرابع عشر يرعى له في الخطب أيام الجمع، الأمر الذي يدل دلالة قطيعة على أن الخلفاء الحفصيين كانوا حريصين على الظهور بمظهر الوارثين للموحدين والمواصلين لرسالتهم، وأن المعلومات التي أوردها العمري في كتابه "الممالك" والتي استنفذ لبابها كاملا لتشهد بأن هذا النظام بقي ماثلت حتى أوائل القرن الرابع عشر، ولكنه كان يتطور بمفعول مؤثرات عربية وأجنبية. (٢٠)

لذا أصبحت تونس في عهد الحفصيين عاصمة بلا منازع، وكان لابد من بناء أسواق جديدة نظرا إلى أن حركة التجارة التونسية من نشاط مستمر، وكانت تونس تصدر الحبوب عند توفر المحاصيل والتمور وزيت الزيتون والشمع، والملح، والأقمشة، والزرابي والمرجان، وبعض الأسلحة وخاصة الصوف، والجلود، ولربما كانت تصدر كذلك العبيد السود، وكانت تورد الحبوب عند للإضطرار والخمور وبعض طيور القنص، والبلور والخشب المصنوع والمعادن، والأسلحة والتوابل، والحشائش الطبية، والعطور والخشخاش، والكتان والحرير والقطن، وأقمشة متنوعة، والحلي، وكانت البضاعة الموردة تخضع إلى ضريبة قدرها ١٠ في المائة من قيمتها وكانت تونس تضرب سكة من ذهب (دينار والدبلون) ومن الفضة (درهم) هي أكثر اعتبارا سكة البلدان النصرانية.

وكانت النصارى تتاجر مع المشرق برا بواسطة القوافل، وبحرا، وكان التجار النصارى يتوافدون على مينائها، فعلاوة على المنحدرين من جنوة وبيزة فإن القادمين من البندقية فلورينسا، وأراغوان كانوا يقومون فيها بدور هام في القرن الرابع عشر، فكان لآل أكسيا ولي (Accuaiuoli) وبروجي (Prruzzi) من فلورينسيا، الذين[٢١] فتحوا في تونس وكالات قرة، وأقدموا على تقديم أموالا للخليفة، وكان لها تأثير سياسي بعيد الأثر، كما سمع تقدم التقنية التجارية، وتطور التأمين على المراكب بتنمية النشاط التجاري، والإقتصادي، وأبرمت معاهدات خاصة لحماية الأجانب في أشخاصهم وممتلكاتهم، وتعتبر المعاهدات التي تمت مع البندقية سنة ١٢٣١م وبيز سنة ١٢٣٤م أو جنوة سنة ١٢٣٦م مثالا يحتذى (فهي تقضي بضمان الملاحة للأطراف المتعاقدة وتضبط قواعد التجارة وشروط استيطان النصارى الأجانب في دار السلام).

وتجددت هذه المعاهدات في فترات كادت أن تكون منتظمة، وزير فيها أحيانا، من ذلك أن بيز تحصلت سنة ١٣٥٣م على ضمانات جديدة لأمن رعاياها وحرية متاجرتهم، واعتبار مسؤولية التاجر المعني بالأمر في حالة نشوب خلاف عوضا عن إدانة مواطني هذه المدينة بصورة جماعية، وكان لكل أمة قنصل يرعى مصالحها ويحمي جاليتها، وفندق تودع فيه البضائع ويلاذ به عند حدوث الإضطرابات، ووجدت كذلك فنادق نصرانية بعنابة وبجاية وصفاقص وقابس وجربة، ولم تكن التجارة في أمن دائم إذ كان النصارى ينافسون المسلمين في سوء النية، وكثيرا ما كان الدفع بالتقاضي (à CRÉDIT) وترد البضائع إما عن طريق الجمارك بضمان أدبي من السلطة، وتباع بالمزايدة، وعن طريق ترجمان أو تأتي مباشرة بما في ذلك من مخاطرة بالنسبة إلى التجار.[٢٢]

واستغل أمر القراصنة، وتجاوزت سلطة الخليفة، فاضطرت المراكب إلى أن تبحر متجمعة وتكررت الأزمات من ذلك الإحتلال "رو جار دي لوريا" لجربة، وتركيز هذا الإحتلال من قبل مغامر إسباني من القطلان يدعى رامون مونتنير (Ramon

Montaner) (١٣١١-١٣١٤م) حتى تم استرجاع المسلمين لها سنة ١٣٣٥م، وهجمات أهل جنوة والصقليين غير الموفقة وكانت النتيجة أن توترت العلاقات وانتهى التنافس بين البحارة النصارى وقراصنة المهدية إلى قدوم أسطول من البندقية وجنوة سنة ١٢٩٠م لغزوه مراكب فرنسية للإستيلاء على هذه "المدينة الإفريقية القوية" بحماتها الأشداء (عن المؤرخ فرواسار) وفشل الهجوم، ولكن قد تكون المهدية إضطرت إلى دفع إتاءه، ولكن كان لنمو قرصنة المسلمين من العوامل التي حملت الأسبان على مهاجمة جربة وتونس في القرن السادس عشر الميلادي. (٢٣)

متطلباتها السياسية في تناقض شديد مع مصالح الأرستقراطية الإقطاعية للقبائل المحاربة، وقد حدد النضال بين هاتين المجموعتين أسلوب الحياة الإجتماعية لشمال أفريقيا في القرنين الرابع والخامس عشر الميلادي، وانحدرت الإحتياجات الأساسية للنبلاء في الأقاليم السياسية الإقتصادية والإدارية إلى حد اشتراط إمكانيات قصوى لتطوير الإقتصاد التجاري في إطار الإقتصاد القطاعي.

وبضعف سوء البحر الأبيض المتوسط وتهورها اتضحت الهزيمة النهائية لهذه الطبقة الأكثر تقدما، وهي طبقة الإقطاع، وعدم استقرار نظرتها السياسية، وانسحابها التدريجي من المواقع التي احتلتها في وقت مبكر.

موقع جزيرة مايوركا

تقع جزيرة مايوركا في شرق الأندلس بالقرب منها جزيرة منورقك. وتوقفت حركة الإسترداد المسيحي إثر توطيد الموحدين سلطانهم في الأندلس مدة من الزمن، لكنها ما لبثت أن عادت إزدادت استفحلا بعد ضمحلال الموحدين في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وذلك لعدم وجود دولة إسلامية قوية تستطيع إنقاذ الأندلس من خطر تساقط قواعدها، وفي ذلك الوقت العصيب على المسلمين تحدث نوايا الممالك الأسبانية النصرانية على مهاجمة الإمارات الإسلامية، وبذلك

إجتاحت الأندلس موجة عاتية من الغزو المسيحي وتساقطت قواعد الأندلس شرقا وغربا في يد النصارى فسقطت جزيرة مايوركا.

كانت مايوركا آخر جزيرة كبيرة في البحر الأبيض المتوسط استعادها المسيحيون الأسبان في ثلاثينيات القرن الثاني عشر الميلادي، وانتقلت من أيدي الحفصيين (أبو حفص يحيى) الذي حكم نيابة عن الموحدين إلي أيدي ملك آراغون جاك الأول، حيث أدى تاريخها المضطرب إلى التمتع بفترة استقلال بين عامي ١٢٧٦م و ١٢٤٩م أثناء وجود مملكة مايوركا المستقلة قبل أن تصبح مرة أخرى ملكية لتاج أراغون.[٢٤]

البحر المتوسط

كان الإقبال الكبير على تجارة محاصيل أفريقيا الإستوائية التي ترد دخلا كبيرا على تجار شمالي إفريقيا بفضل تصدير الذهب من هناك ومن الفيل، وخشب الأبنوس وغيرها، حيث كان بإقبال الكبير على هذه التجارة وشبه إختيار شمال أفريقيا (إلى جانب مصر) لتزويد بلدان البحر الأبيض المتوسط، وبقية أوربا بهذه التجار لدرجة استيعاب الطريق البحري البرتغالي إلى ساحل غربي أفريقيا (في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي) واكتشاف أمريا، كان كل ذلك يزود كثيرا من تجار مدن الشمال الأفريقي وشيوخ القبائل الصحراوية بمكاسب ضخمة.

ولم يكن شمال أفريقيا موردا للخامات اللازمة لصناعة المنتوجات والجلود في بلدان أوربا فحسب، ولكنه كان كذلك سوقا لتصريف السلع المتنوعة التي تتجر بها المدن الكبرى بحوض البحر الأبيض المتوسط، إلى جانب استيراد الإنتاج الصناعي من المنتوجات والمصنوعات المعدنية من المدن المختلفة في إيطاليا وفرنسا، والفلاندر، والحبوب من لومبارديا، والسفن من جنوا والزجاج من فينيسيا، والسلع الكمالية من إيطاليا الإسكندرية، كذلك كانت شمال أفريقيا تصدر المواد الخام ونصف المصنعة

اللازمة للصناعات الحرفية كالحديد، والنحاس والقصدير وأخشاب البناء، والصباغة، والألوان وأنواع الأخشاب الثمينة.

وكان تيار التصدير من شمال أفريقيا أقوى بدرجة كبيرة مما كان في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، حتى وصل إلى الفلاندر وبيروج، الحلود وغراء الغنم والشمع والسكر من مراكش، والبلح، والشب من سجلماسة، والشمع والشب من بجاية وتونس.(٢٥)

وبالرغم من ضيق سوق البحر الأبيض المتوسط والضعف الناتج عن الإنتاج إلا أن تطورات إجتماعية ملحوظة بدرجة كبيرة قد حدثت في المدن الساحلية الكبرى، ومن المراكز التجارية الصناعية مثل تلمسان وأكثر من ذلك لوحظ النمو السريع في مدن المغرب في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، والأرجح في علاقة هذا النمو بتطور سوق البحر الأبيض المتوسط مما يترك بعض المؤلفين مثل و. بروديل في كتابه الرأسمالي المخصص لتاريخ بلدان البحر الأبيض المتوسط في أواخر العصور الوسطى، حيث يعبر عن الفكرة القائلة بأن التحضر نشأ في انعزال عن التطور العام للبلاد.

ومن هنا يستنتج بروديل أن رفاهية مدن الشمال الأفريقي كانت تتوقف على التجارة العابرة من وسط أفريقيا فحسب، وبصورة أساسية على نقل الذهب من هناك، ويرى بروديل أن الذهب هو المحرك للتطور، وبفضله نشأت هذه المراكز بعد القرن العاشر، مثل الجزائر ووهران، وتطورت المدن الساحلية القديمة، ولم يكن نمو المدن الساحلية مؤثرا على الإتجار في السكر المصدر، ولكن على السير العام للتطور الداخلي للبلاد، ذلك التطور المنجذب إلى نظام أسواق البحر الأبيض المتوسط، ولم ينشأ في إنعزال عن المدن المحاطة بالمناطق الزراعية، بل على حساب هذه المناطق، لأن التبادل الإستثماري بين المدينة والقرية في القرون الوسطى لم يوجد. (٢٦)

ومن سير نمو العلاقات التجارية مع بلدان البحر الأبيض المتوسط حدثت تطورات خطيرة في أوضاع الطبقات الإجتماعية وطوائف المجتمع من شمال أفريقيا، كما احتل الأرستقراطي الدم موقعا ممتازا داخل الطبقة الإقطاعية لشيوخ الموحدين، وشيوخ القبائل الذين كانوا يمتلكون الأراضي الزراعية والعقارات الضخمة، و الفرق العسكرية الكبيرة. وكانت "أرستقراطية الدم، ..... في اتحاد خاص برئاسة شيخ الموحدين" يحدد سياسة الحكومة، ويصرف جميع شؤون الدولة، وأرستقراطية الموحدين، لم تفقد وضعها عند الحفصيين. فقد كان الحفصيون انفسهم منحدرين من أرستقراطية الموحدين، وقد استندو إلى جزئها الإفريقي، وفي السنوات العشر الأولى أعلنت الدولة بجميع الرسائل ولاءها للتقاليد السياسية والدينية للموحدين.

ومع ذلك فحتى القرن الثالث عشر كانت مجموعة أخرى من الطبقة الإقطاعية التي سماها برونشفج (نبلاء المدينة) قد قويت إلى حد كبير، وفوق ذلك لوحظ أن الجزء الهام من ملاك الإقطاعيات الزراعية المتطورة إلى أعلى من أقاليم التل، الذين كانوا يعيشون باستمرار في المدن، كانو مولعين بالحزمة في البلاط، وفي الوظائف العسكرية والإدارية المختلفة.

كانوا نبلاء المدينة، حتى القرن الثالث عشر كانو أكثر إرتباطا من الموحدين بالتجارة والصناعة الحرفية في المدن كان اقتصادهم يحمل من المميزات السلعية أكثر مما يحمل إقتضاد شيوخ الموحدين.

وبتطور التجارة الضخمة فيما وراء البحار، توطد الموقف الإقتصادي لأرستقراطية هذا الجزء بدرجة كبيرة، واكتسب مغزى هاما من الإتجار بالصوف بنوع خاص، وكانت تربية الأغنام في شمال أفريقيا متطورة في منطقة[٢٧] الثل.

ولقد وجد أبو زكريا ظروفا أكثر ملاءمة للتجارة الخارجية الواسعة فعقد سلسلة طويلة من المعاهدات مع البلدان الأوربية الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

وسعيا وراء توسيع التجارة مع أوربا، إتبع أبو زكريا سياسة سلمية مع البلاد المسيحية، ووطد علاقات الصداقة مع ملوك النصارى، وحقق قدرا كبيرا من النجاح، فقامت علاقات وطيدة خصوصا بين أبي زكريا وفريدريك الثاني ملك "صقلية"، وامبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كذلك الأمر في الحرب البحرية ضد جنوا وفينيسيا أمر فريدريك الثاني أن تراعي مصالح "ملك تونس" آخذا في الاعتبار أهمية المدن الإفريقية للتجارة مع هذه الجمهوريات.

وقد قامت العلاقات الودية بين أبي زكريا وملك أرغون يعقوب المنتصر خصمه في تلك السنوات التي كان فيها أبو زكريا الموحدي حاكما لأشبيلية. كذلك توطدت الصداقة بوجه خاص بعد استيلاء يعقوب على بلنسية، أحد مراكز التجارة الكبرى في البحر الأبيض المتوسط، وقد توسط الخصمان الأخيران الكاثوليكي المتعصب ويعقوب المسلم والغيور أبو زكريا مجتمعين إلى البابا إينوكينت الرابع، أن يعطي "ملك تونس" تأكيدا رسميا بالسلام لمنع هجمات الصليبيين المتجهين إلى مصر.

وهذه السياسة الخارجية لأبي زكريا، ومعظم خلفائه كانت تختلف اختلافا كبيرا في سياسة أمراء شمالي أفريقيا في العصور السابقة، وكذلك عن سياسة الحكام الأتراك، والسلطة التي قامت في تونس في الفرن السادس عشر، فبعضهم حكم في عصر ضعف تطور التجارة في البحر الأبيض[٢٨] وحدث تغير في أوضاع البحر الأبيض المتوسط في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي حينما أخذ البرتغاليون يهتمون بسياسة البحر الأبيض المتوسط في محاولة الملك أفونسو الخامس للرد على سقوط القسطنطينية تلك المتعلقة بثقل المجتمعات التجارية الإيطالية في الإقتصاد البرتغالي مع ما ترتب على ذلك من زيادة في الأنشطة الإقتصادية في البحر الأبيض المتوسط، ووجود البرتغاليون في وسام القديس يوحنا القديس (رودس) مع مشاركتهم في الكورسيكان المشرقي وفي النضال ضد القوة البحرية للمماليك والعثمانيين حيث أصبح دور حدود البحر الأبيض المتوسط كمنطقة نفوذ أوربي وبعض الوجود البرتغالي أكثر واقعية مع

الملك جواو الثاني من خلال إتصاله مع تونس وإنشاء مركز تجاري في وهران بقيادة روي فرناندیز دي ألمادا بين (١٤٨٣-١٤٩٩م) وما تلاه من تجارة في السكر مع العثمانيين، مصحوبة بالحماية الممنوحة لرودس، حيث رأى الملك القاعدة الإستراتيجية المفقودة، في شرق البحر الأبيض المتوسط وهي "بوابة"،[٢٩] حقيقية للسيطرة على البحر الأحمر من غرب المحيط الهندي. (١) وفي القرن الخامس عشر استجاب تكوين السياسة الأوربية المتوسطية للعديد من الأحداث التاريخية ولكن كان أحدها حاسما وهو التقدم العثماني في سنة ١٣٥٤م الذي ترجم إلى الفتوحات المتتالية لمراد الأول هو دافيد فار (١٣٢٦-١٣٨٩م) هو دافيد فار، ثم بايزيد الأول يلدريم (١٣٥٤-١٤٠٣م) ثم محمد الأول (١٣٨١-١٤٢١م) ثم مراد الثاني هوكا (١٤٠٤-١٤٥١م) ومحمد الثاني الفاتح الإستيلاد اللاحق على القسطنطينية (١٤٥٣م).

وهذه الحلقات إتسعت الحدود العثمانية للبحر الأبيض المتوسط والبلقان إلى الغرب بوثيرة متسارعة، فقد إستولى محمد الثاني على ممتلكات جنوة وتراقيا (فوجا وإبنوس) عام ١٤٥٥م، وأثينا عام ١٤٥٦م، كما يجب أن نتذكر أن الفتوحات العثمانية في القرن الخامس عشر الميلادي قد نفذت على حساب إثنين من الكيانات التجارية الكبرى في البحر الأبيض المتوسط جنوة، والبندقية، والتي يجب أن ترتبط بها فلورينسا بطريقة أقل إثارة، على الرغم من أن ممتلكات جنوة وفينيسيا، في بلاد بدت غير ذات أهمية جغرافية بسبب طابعها الإنعزالي مقارنة بالتوسع القاري لغزو السلاطين العثمانيين في ذلك الوقت، فإن الحقيقة هي أنه في القرن الخامس عشر كان كلاهما لا يزال مسيطر على قطاعات متنوعة على نطاق واسع، من الحياة الإقتصادية للبحر الأبيض المتوسط البرتغال والصعود[٣٠] الذي حققته في التجارة الخارجية البرتغالية في البحر الأبيض المتوسط ربطهما على مستويات مختلفة بالسياسة والإقتصاد البرتغالي.

الخلاصة

موضوع البحر الأبيض المتوسط جزيرة مايوركا

قدم كلا من إنفريد هوساي ميتشينزي وإيمانويل فاجنو عملا ممتازا أطلق عليه "الخرائط التجارية وحركة التجار في مايوركا في القرن الخامس عشر م" حيث كان عملا أكاديميا رصينا تكلم المؤلفان فيه عن النواحي الاقتصادية والتجارية في جزيرة مايوركا في فترة القرن الخامس عشر الميلادي تضمن فيها المصادر والمراجع العربية ، وتحتوي المقالة على معلومات ثمينة وإلا أن الملاحظ د. إنغريد هوساي ميتشينزي لم تكن تلتزم الحياد التاريخي في ذكر جهود التجار الموريسكيين والمسلمين من العاملين في مايوركا ، والتركيز دائما على جهود التجار اليهود والمسيحيين وبالرغم من أن الأحداث قد جرت في فترة أبي زكريا الحفصي في الدولة الحفصية فقد تغاضت عن ذكر المحيط السياسي العربي المسلم وتكلمت المؤلفة عن دور اليهود في مايوركا وعن يهود المغرب وكأن اليهود لم يكونو متعايشين مع السكان العرب في مايوركا ، و في شمال أفريقيا عموماً وكأن الدولة الحفصية لم تكن موجودة في مايوركا و شمال أفريقيا، ونحن ندرك أن رأس المال اليهودي والخبرة لدى الشركات اليهودية والمسيحية هي قوام النشاط الإقتصادي في التجارة العالمية ، كما يؤيده ما روته المستشرقة زنفريد هونكة التي أشارت إلى النقود من سمرقند في حديثها عن مالقا Malaga في القرن الثالث عشر الميلادي.

أما المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان وغيره من المستشرقين الأوربين يؤكدون على دور اليهود الناجين والهاربين من محاكم التفتيش في أسبانيا في انتشار التجارة في مايوركا وشمال أفريقيا ، وكان التاريخ الإقتصادي في البحر المتوسط كتب على يد المستشرقين الأوروبيين الذين كان أسلوبهم التأكيد على دور العنصر اليهودي والمسيحي في نشر التجارة في القرن الخامس عشر الميلادي ، إلا أن الأغرب من ذلك للقارئ العربي ما سجلته د. إنغريد هوساي ميتشينزي في مقالها عن مايوركا، أن

الحضارة الغربية كانت وليدة حضارات الرومانية واليونانية - وهو ما يكاد يكوو منتشرا في البرتغال - بدون وسطاء لاغية بذلك دور العرب والمسلمين عن دورهم في نقل حضارة المسلمين في الأندلس ، وحضارتهم في صقلية وحضارة بغداد والمشرق إلى أوربا.

ومن ناحية أخرى نلاحظ كيف أنهت المستشرقة كارين بنتو في نقاشها حول رسم الخرائط الجغرافية حيث أكدت على أن الرسامين اللاتينين والأوربيين في مايوركا وإيطاليا، وتناست دور العرب ومساهماتهم في علم الخرائط والجغرافية والفلك ، في الوقت الذي انتهجت فيه المستشرقة ديجانيرة كوتو منهج الإعتدال والموضوعية في مناقشة الأمور العلمية التي درستها وقدمتها في ورقتها المعنونة "المساحات الشبكية" المساحات المكانية للشبكات في البحر الأحمر وغرب المحيط الهندي - رؤية للبحر الأحمر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي من خلال رسائل أفونسو دي ألبوكيرك (١٥١٣).

أما الدكتورة سغيثلانا باتسييفا ، في كتابها ، العمران البشري في مقدمة ابن خلدون ، الناشر الدار العربية للكتاب ، ليبيا، تونس ١١٩٧٨م / ١٢٩٨ه ص (٢٤-٣٧) فكانت أكثر إنصافاً للحق في مدح الحضارة الاسلامية.

المراجع

(١) أرنو باسكال. اصول الطريق البحري ، مسارات من البحر الابيض المتوسط ، طبعة اراني -باريس ٢٠٠٥ ، ص٥-٢٣٢.

(٢) جي. بي أوليفيرا مارتينيز، البرتغال في البحار، مكتبة برتراند، (٧٥) شارع جاربت ١٨٨٩م لشبونة ص. ٨. كذلك انظر ويكيبيديا. الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥-٥٨٧ه / ١١١٩-١١٩٢م).

(٣) جي بي، أوليفيرا مارتينيز، المرجع السابق ص. ٧.

(٤) باسكال أرنو، المرجع السابق ص. ٥ - ص. ٢٣٢

(٥) باسكال أرنو، المرجع السابق ص ٦٧ - ١٠٧.

(٦) باسكال أرنو، المرجع السابق، ص ١١٣.

(٧) باسكال أرنو، المرجع السابق

(٨) إيمانويل فاجنون ، الخرائط والشبكات الملاحة في نهاية العصور الوسطى، جامعة باريس، نانتيون، السوريون. ص. ٧٢.

(٩) إيمانويل فاجنون، المرجع السابق، ص. ٧٣٠.

(١٠) إيمانويل فاجنون، المرجع السابق، ص. ٧٣.

(١١) ديجانيرة كوتو : المساحات الشبكية: المساحات المكانية للشبكات في البحر الأحمر، وغرب المحيط الهندي، علم الآثار ٨ ليون ٢٠٢٢، كل تروات العالم ستكون بين يديك، رؤية للبحر الأحمر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، من خلال رسائل أفونسو دي ألبوكيرك (١٥١٣م) ص. ١٩.

(١٢) ديجانيرة كوتو، المرجع السابق ،ص. ٢٨.

(١٣) ديجانيرة كوتو : البرتغال وحدود البحر الأبيض المتوسط في القرنين الخامس عشر والسادس عشر : السياسة الملكية رسم الخرائط للعالم المنعزل للشرق، معهد دراسات القرون الوسطى، شام، مركز العلوم الإنسانية مجموعة الدراسة ٢١، / باولو كاتارينو لوبيز / محرر، لشبونة ٢٠١٩.

(١٤) دومينيك فاليرتان، اسم APIM شريك مشروع المتوسط، مجتمعات البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي سنة ٢٠٠٩ ص. ١٢.

(١٥) دكتورة سغيتلانا باتسينا، المرجع السابق، ص. (٢٤-٢٧).

(١٦) دكتورة سغيتلانا باتسينا، المرجع السابق، ص. ٤٩.

(١٧) سغيتلانا باتسينا، المرجع السابق، ص. ٥٢.

(١٨) شارل أندريه جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٢٠م تعريب محمد مزالي والبشيري سلامة، الدار التونسية للنشر الجزء الثاني عام ١٩٨٢م، ص. ١٨٩.

(١٩) شارل أندريه جوليان، المرجع السابق. ص. ١٩٠.

(٢٠) شارل أندريه جوليان، المرجع السابق، ص. ١٩١.

(٢١) شارل أندريه جوليان، المرجع السابق، ص. ١٩٦ ص. ١٩٧.

(٢٢) شارل أندريه جوليان، المرجع السابق ،ص. ١٩٨.

(٢٣) شارل اندريه جوليان، المرجع السابق، ص. ١٩٧.

(٢٤) د. نبيل عبد الحي رضوان، الغزوات الأسبانية والبرتغالية من الشمال الأفريقي (٨١٨ه - ٩١٧ه / ١٤١٥م - ١٥١١م) ،ص. ٥٣٣ - ٥٨١، مجلة المؤرخ العربي،

إتحاد المؤرخين لوب بالقاهرة، العدد الســـادس، المجلد الأول، مارس ١٩٩٨م، ص. ٥٢٢، وما بعدها.

(٢٥) دكتورة سغيتلانا باتسينا، المرجع السابق، ص. ٢٤-٢٧.

(٢٦) دكتورة سغيتلانا باتسييفا، المرجع السابق، ص. ٤٠.

(٢٧) دكتورة سغيتلانا باتسينا، المرجع السابق، ص. ٤٢.

(٢٨) ص. ٤٦-٣٧.

(٢٩) ديجانيرة كوتو، البرتغال وحدود البحر الأبيض المتوسط في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي؛ السياسة الملكية ورسم خرائط للعالم المشرق المنعزل، ص، ٣٤٢.

(٣٠) ديجانيره كوتو، المرجع السابق، ص. ٣٤٧.